هنري برغسن

ضيفنا العظيم اشهر فلاسفة هذا العصر (١)

من الاشياء ما يرافقهُ رنين معذب ينبهُ في الفكر يقظةً حصيصة كأن يداً خفية منهُ تنقر على جهةٍ معينة فتفتح امام النفس باباً يشرف على عالم ضياء جهل المرء قبل تلك اللحظة وجودهُ

اهي الشهرة تفيض على الاسم رونقاً وتكسبهُ تأثيراً فعالاً ؟ ام هي مقاطع الصوت مع ما يميزها من قوة وعذوبة ونغم موسيقي تسترق السمع وترضي الخاطر معاً ؟ ام هو معنى الاسم يستميل السامع راسماً في ذاكرتهِ صوراً يمثلها وتأويلات يؤدي اليها

يتركب اسم برغسن من كلمة Berg ومعناها « جبل » و Son ومعناها « ابن » فيكون معناها « ابن الجبل » . وكأن صفة المسمى تحلُّ لغز اسمهِ في ذهني لاني ما ذكرت برغسن مرة الا تمثلت لناظري صورة رجل انتصب فوق جبل شاهق مطلاً على آفاق فيحاء ومروج مترامية الاطراف

وهو كذلك في الواقع . لان ما امتاز بهِ من واسع العلم وبعيد النظر وصادق الحرية وشريف الاستقلال يدفعهُ الى النزوع عن كل رأي وعصر ووسط متفلتاً من قيود العقائد والمذاهب تفلتهُ من تأثير فلسفة اسبينوزا (٢) — كل ذلك يجعل موقفهُ فريداً بين فلاسفة هذا العصر . كانما هو قام على جبل اشم يجيل النظر في هذا العالم ولوامعهِ السطحية وسرعان ما ينتقل الى ما وراءهُ مما هو في تقديرهِ الروح التي تحييهِ . فتبدو لهُ حجب الوجود ستراً رقيقاً وتكاشفهُ آلهةُ الغيب بما في قلب الاشياء واعماق الصدور

---

(١) ولد برغسن في باريس عام ١٨٥٩ وهو الآن استاذ في Collège de France كما انه من اعضاء المجمع العلمي Institut والاكاديميا الفرنساوية ورئيس جمعية العلوم السياسية والاخلاقية

(٢) Spinoza فيلسوف اسرائيلي هولندي من اصل اسباني ولد وتوفي في القرن السابع عشر وقد عزز مذهبه مذهب ديكارت . ومذهبه المعروف « اسبينوزم » قائل بوحدة الوجود (Panthéisme)

قام مذهبهُ يعارض المذاهب الايديالستية الالمانية (١) وينكر اقوالها وتعاليمها مثبتاً ان وظيفة العقل عملية أكثر منها نظرية وان الحقيقة المحسوسة أبعد من ان تدرك بالابحاث الجدلية والتبحر العقلي. فجملة تصريحاته هذه عميد اتباع مذهب النفعية (Pragmatism) (٢) في اميركا واوربا وقاضي محاكم المعقول والمنقول عندهم الذي بين شفتيهِ منطق الحق ومفصل الصواب. وقد وضع رئيس هذا المذهب وليم جايمس كتابهُ الشهير (A Pluralistic Universe) وافرد احد فصولهِ للثناء على برغسن ودرس مذهبهُ فقال انهُ يشاركهُ في كثير من آرائهِ خصوصاً في ما يتسق باعلاء منزلة البداهة. رافقهُ في دخولهِ الى خفايا الحياة الداخلية وانحنى معهُ على نهر جارٍ في اعماق الضمير سماهُ « البداهة » لانهُ لم يجدا كلمة اصلح من هذه فالقى تأمله وبحثهِ على حياة النفس نوراً خاصاً فبرزت واسعة بعيدة الغور فيها عجائب حركات والحان وعوالم ثروة وروعة والوان

ولا يعجبن القارىء الكريم لهذه اللهجة الشعرية في موضوع فلسفي لان مذهب برغسن على ما فيهِ من الحقائق العلمية والمبادىء الرياضية يكاد يكون معظمهُ مكتوباً بهذه اللهجة الشعرية. فالذين لا يفهمون برغسن الفيلسوف او لا تتفق آراؤهُ مع اعتقاداتهم يعجبون ببرغسن الكاتب مطلقين عليهِ اسم « الفتان » Charmeur

آفات الشهرة ومصيبة برغسن

للشهرة آفتان كبيرتان عدا آفات صغيرات كثيرات : احداها حسد المنافسين مع ما يتضمنهُ من اغتياب وتهكم واتهام المرء بما ليس فيهِ والمبالغة في عيوبهِ وتأويل حركاتهِ وكلماتهِ تأويلاً خبيثاً. فاذا كان شديد الاحساس ولم يساعده اختباره وعلمهُ على التغلب على المرء احتقر الامر كبراً وما اصعب الوصول الى نقطة بين بين. والآفة الاخرى تكون احياناً أكثر مرارة وهي تقليد البعض لهُ وتشبههم بهِ وان كانت شخصياتهم تختلف عن شخصيتهِ كل الاختلاف. فيرى نفسهُ ممسوخاً

(١) (Idéalisme) يطلق هذا الاسم على مذاهب عقلية اشهرها مذهب كنت (Kant) الذي ينكر الحقيقة الشخصية للاشياء ويجزم بانها نسبية او خيالية ليس غير

(٢) Pragmatism او مذهب النفعيين هو مذهب الباحثين عن المنفعة في كل امر يأتونه ووضع هذا المذهب وليم جايمس الاميركي المتوفى سنة ١٩١٠

في الآخرين وكثيراً ما يحكم الناس على الاصل الذي لا يعرفونهُ بالنسخة البادية لهم . فيشاركهُ مقلده في فضائله وحسناته بينما يكون هو مسئولاً عن عيوب مقلده فوق عيوبهِ

وقد ابتلي برغسن بالمصيبتين . فمن جهة منافسوهُ ومعارضوهُ من الناهضين مذهبهُ ومن غير الناهضين المكتفين بالدعوى . ومن جهة اخرى طائفة المعجبين بهِ وهم جيش جرار اولهُ في فرنسا وبقيتهُ منتشرة في اوربا واميركا . اولئك يؤذونهُ لانهم يسيئون تعليل نظرياتهِ ومنهم من لم يقرأ من قلمهِ الاَّ بعض فقر نشرت في الصحف والمجلات . وقد اطلق عليهم عقلاء الفرنساويين اسم « برغسنيين ضد برجسن » . فمنهم اعداء الثورة الفكرية من محبي الاشياء الشاذة ذوي العواطف السقيمة والآراء المبهمة ومنهم مقتحمو الاخطار العقلية ممن يستكفون الخضوع لقانون كتابي او نظام فني او تعليم اخلاقي . كذلك الذين لا تزعجهم المناقضة « بالمعقولات » في الصالونات حول البخار المتصاعد من فناجين الشاي ممن يستهلون كتبهم ودواوينهم بجمل برغسنية . والناثرون الذين يريدون ان ينسب اليهم خيال الشعراء . والشعراء الطامعون بان يسمت شعرهم بالفلسفي . والحسان اللاتي لا يرفضن الظهور بمظهر المتعلمات . والاساتذة الذين يبحثون عن طريق الشهرة . وصغار الكتاب الذين يودون ان يحسبوا كباراً . والرسامون الخاملون . والناقدون الذين لا شأن لقدمهم . والمفكرون الذين لا فكر لهم . كل من يرمي الى ايجاد مكان لهُ في عالم الفكر او الفن او التظاهر يسارع بالالتفاف حول اللواء البرغسني المزهو حتى اذا ذكر الاستاذ — وما اكثر ما يذكرونهُ ! — ذكر تابعهُ معهُ ولو من بعيد

وفوق عصابة الفضوليين فئة من ارقى المفكرين تنتمي الى برغسن وتغار على مذهبهِ مذهولة كيف يصمت النيلوف الذي يحتقر الشهرة الكاذبة عن المتاجرين باسمهِ فلا يقوم بانكارهم جميعاً جاعلاً احتجاجهُ حاجزاً بين الاكاذيب الملفقة وبين فلسفتهِ الاصلية . لكن برغسن يعيش هادئاً هدوء الحكيم بعيداً عن زوابع مذهبهِ المشوه لانهُ يعلم انهُ بريء وانهُ سيلاقي من الاجيال المقبلة انصافاً . فلا اهمية لحواشي المدعين . انما البرغسنية الجوهرية وحدها تعد في تاريخ الفلسفة كما في تاريخ الآداب الفرنساوية . فاذا ما خلصت من الشوائب سطعت بجمالها المهيب واصبحت مذهباً من اقصى المذاهب الفلسفية المعروفة

لمحة في شخصيته

تقدمت العلوم في السنوات الاخيرات تقدماً باهراً واستعمنت آلاتها واكتشافاتها في احوال الحياة اليومية فكاد ذلك يقنع الاكثرية بتخون الفلسفة عالم المجهولات وكشف ستارها . ولكن الفكر البشري هو هو دائماً وخبرتهُ النظرية تنمو على مقربة من اقتدار العلم وكل فرع من فروعهِ ينمو خاضعاً لنظام النشوء والارتقاء . فان لم يأتنا الفيلسوف بآلة كهربائية وادوات قتل وتدمير فهو يبسط رأياً مستجدداً دائماً بنا الى نقطة امامية نرى عندها جهةً جديدة للحياة . يبحث عن جواب « من اين ؟ » و« الى اين ؟ » فيستوقفهُ بينهما سؤال ثالث : « لماذا نعيش وكيف يجب ان نعيش . » . وهذا السؤال وحده كان موحداً اسمى معاني الحياة واشرف ما فيها من الافكار والغايات والمقاصد

على ان الحركة الفكرية المتتابعة لا ترمي الى التوحيد ولئن كانت غايتها النهائية واحدة فكثرتهم حسب طبائع التكوين بها ورغباتهم . ولنقل مع وليم جايمس ان لكل مذهب فلسفي نقطة انبعاث محاذية لرأي صاحب المذهب وخبرته الشخصية ولا يفسر الفلاسفة الخليقة ويعللون شؤونها الا بما لديهم من ذوق وميل وتجريب . فالميكانيكي منهم يرى العالم ساعة كبيرة مرغمة على السير بنظام الحركة الدائمة . والفلاح بالزراعة يراهُ نامياً هو بذور زرعت واشجار غرست . منهم من يذهلهُ ما في العالم من تشويش وخلل فلا يرى الحياة الا من جهتها القاتمة تحت ليل الشرور والاوجاع ومنهم من يعجب بما هو عليهِ من نظام وترتيب فلا يمنح من الحياة الا وجهها النبيل الباسم بجميع المسرات وصنوف الرغد والهناء . وكلهم مستشهد بسلطان العقل لكن حججهم وتعليلاتهم إنما هي عوارضُ مزاجهم الشخصي

اما برغسن فجمع في مذهبهِ عناصر فلسفية شتى بعضها من عقائد اهل الباطن (Mysticism) والرومنتية (Romanticism) والنفسيات والبعض الآخر من مذاهب الحيويين والارتقائيين والعقليين

اتكأت المذاهب العصرية على المنفعة فكان لها منها الانتشار والثروة اما برغسن فيعترف بانهُ شاد مذهبهُ على اصول علم الميكانيك . فاذا درس امرؤ فلسفتهُ شعر بان هذا الرجل جمع بين تدقيق الرياضي وصرامتهِ وحلم الفيلسوف وعذوبتهِ . يعمد الى الخصافة والفطنة للبحث في العلل الرياضية والقضايا العلمية ثم

يعود الى لطفه الناقد واحساسه القوي ليدرس عمق القلب وديبب الحي . يؤله البداهة التي علمته ان للمرء حياة غير الحياة الظاهرة . فما استسلم يوماً للمعاني البادية في تنوّع الصور بل سعى دائماً الى اكتشاف وجه الشبهة بين الظواهر المختلفة عظمة وحقارة واستقصا نقطة المقارنة بين الغرائز على ما يفصلها من فروق نوعية وكلامية واجتماعية وجنسية . وذلك شأن المفكر الحكيم

العلم والفلسفة

بعض المذاهب فلسفة ودين في آن واحد كمذهبي بوذ وبرها . ويصح القول بان كل فلسفة دينية لانها تبحث عن علة الكون وصفات المكون كما ان لكل دين آراء فلسفية تختلط بلاهوته واكثرها تعاليم اخلاقية . وبعض المذاهب دين وعلم وفلسفة جميعاً مثل اديان الهند . او يود ان يكون كذلك فلا ينجح كمذهب اوغست كونت . على ان الشقاق قائم ابداً بين الثلاث وقد بدأ قبل ان يتجرع سقراط السم في سبيله وسيدوم الى ما بعد برغسن بعصور لا تحصى

يستشهد برغسن بالعلوم الوضعية وما تأييد مثله الاخلاقي الاّ في مصلحة الدين حتى ان القارىء يشعر احياناً بان العلم اصبح حليف الدين للمرة الاولى منذ فجر التفكير والسحر . ويسلم الناقدون بانهُ خدم الفلسفة خدمة كبيرة باخراجها من شباك الكلام وتعقدات المعاني المستعملة في التعبير عما وراء الطبيعة . على انهم غير مقتنعين بان مذهبهُ يرضي العقل والدين معاً

يقول في الفلسفة ان الذي خصصها بالمبادىء قصداً وضعها فوق العلوم كمحكمة نقض وابرام فوق محاكم الاستئناف والجنايات اساء اليها لانها قد تتحول رويداً رويداً الى محكمة تسجيل . واذا ارادت الفلسفة ان تعمل عملا مهماً نافعاً فعليها ان تعتبر الكائن الحي في ذاته دون ان تحصر ابحاثها في دائرة الاختبار الضيقة التي لم تخلق لها بل هي مملكة العلم . والاّ فبدلا من ان تكون فلسفة مسيطرة على العلم امست تهيم وراءهُ كخادمة بليدة تكتفي بالتقاط الفتات المتساقط من موائده . اذاً لا عجب اذا احتقرها من العلماء كثيرون

ويقول ان وظيفة العلم الاستدلال التحليلي والاستنتاج الاختباري لكن وظيفة الفلسفة قائمة في البحث عما هو ابعدُ من المعروف غوراً وأعمق في النفس اثراً . على الفلسفة استكناههُ واستقصاءه فتسبق بذلك العلم الى حيث يتبعها بعد

حين ليبرز الى الوجود عجائب يجعلها الاستعمال والممارسة مألوفة . ويستفيد على هذه الصورة الفريقان معاً

حل ديموقراطي

اقترح بعضهم انشاء سياسة ديموقراطية برغسنية وتأليف احزاب ثورية تستخرج مبادئها من مذهب برغسن فقالوا :

ان غاية الديموقراطية تحويل الفرد ما أمكن الحقوق وتعليم الجميع احترام حقوق الانسان الطبيعية. وكل فلسفة تهتم بالفرد (مثل مذهبي روسو وكنت) انما هي مساعدة الديموقراطية في تحقيق غايتها . ولما كان برغسن مظهراً من الفرد أعظم قيمة ظهر حتى الآن بكشفه عن اهمية الأنا الاساسية Le moi fondamental ومثبتاً ان الحياة الفردية مستودع قوى ثمينة تغنيها حياة الاجتماع برداء الاصطلاحات ومعلناً ان الدرجة التي يستطيع المرء الوصول اليها يجب ان تقاس بقيمته الشخصية وبخبرته الداخلية لا بما هو عليه من ثروة مادية ومركز قومي — مما رفع اهمية الفرد الى هذه الدرجة العالية — كان مؤيداً بنظريته سياسة الفردية ومعززاً المثل الديموقراطي الاعلى

ما أسهل ان يكون المرء محقاً اذا تكلم بهذه اللهجة ! وقد صدق القائل ان اكثر الناس اذى لا مرىء اكثرهم شغفاً واعجاباً به

الديموقراطية روح هذا العصر وفرنسا وطن الديموقراطية في العالم القديم كما ان اميركا مدرسة الحرية الديموقراطية في العالمين . وبرغسن أعظم فيلسوف فرنساوي في هذا العصر فلا عجب اذا حاول الديموقراطيون الاتكاء على مذهبه . لكنهم في تقديرهم مخطئون

اذا كانت غاية الديموقراطية تعظيم قيمة الفرد العددية والاجتماعية فهي لا تعبأ بقيمته النفسية والاخلاقية وهي التي اهتم بها برغسن فدعاها ألانا الاساسية. تلك ألانا التي لا تتزلف لمعروف ولا تكبلها القيود والاصفاد ولا تسلبها حريتها وشرفها غيابات السجون . وهي لا غرض لها في الدفاع عن الديموقراطية والتذمر من الارستوقراطية لانها فوقهما بمراحل

ستأتي البقية